التربية بين الفلسفة والتصوف. دراسة حالة الامام الغزالي

مقال مراجعة Subject Review

م.د. شيماء هاشم عذير

shaimaa 746@gmail.com

م.د. انتصار خليل حسن

جامعة بغداد/ كلية العلوم الاسلامية

الملخص

يستقصي هذا البحث طبيعة التجربة الروحية بوصفها ظاهرة إدراكية وأنطولوجية مركبة، متجاوزاً الانقسام التقليدي بين التجريد الفلسفي والاختزال المادي. يتبنى البحث "**الظاهراتية العصبية" (Neuro-phenomenology)** كإطار منهجي لردم الفجوة التفسيرية بين "المعرفة الذوقية" في التصوف الإسلامي وبين "المعطيات العصبية" في علوم الإدراك المعاصرة. يتخذ البحث من تجربة الإمام أبو حامد الغزالي أنموذجاً تطبيقياً لتحليل عملية الانتقال من الشك المنهجي إلى اليقين الإشراقي، موضحاً كيف تتناغم العمليات العصبية مع القصدية الروحية لإنتاج وعي متعالٍ.

الكلمات المفتاحية:**التجربة الروحية، الظاهراتية العصبية (Neuro-phenomenology).، الإمام أبو حامد الغزالي، إبستمولوجيا اليقين، شبكة الوضع الافتراضي (DMN)، العلم الحضوري، فلسفة العقل الإسلامية.**

altarbiat bayn alfalsafat waltasawufi. dirasat halat alamam alghazalii

d. Intisar khalil hasan.

d. shaimaa hashim eadhir

University of Baghdad/ College of Islamic Sciences

Abstract

This research explores the nature of spiritual experience as a complex cognitive and ontological phenomenon, transcending the traditional dichotomy between philosophical abstraction and material reduction. It adopts neurophenomenology as a methodological

framework to bridge the interpretive gap between experiential knowledge in Islamic mysticism and the neurological data of contemporary cognitive science. The research uses the experience of Imam Abu Hamid al-Ghazali as an applied model to analyze the transition from methodological doubt to illuminative certainty, demonstrating how neurological processes harmonize with spiritual intentionality to produce transcendental consciousness.

Keywords:Spiritual experience, Neurophenomenology , Imam Abu Hamid al-Ghazali ,Epistemology of certainty , Default Mode Network (DMN), Present-mode knowledge, Islamic philosophy of mind

ثانياً:المقدمة (Introduction)

تعد التجربة الروحية (Spiritual Experience) من أكثر الظواهر تعقيداً في تاريخ الفكر الإنساني، حيث تتقاطع فيها التطلعات الميتافيزيقية مع العمليات الإدراكية والبيولوجية. وتبرز إشكالية البحث في الفجوة المعرفية القائمة بين التفسير الفلسفي الوجودي والتفسير العصبي المادي؛ فبينما ركزت الفلسفة الإسلامية والتصوف على "الذوق" والكشف الباطني كأدوات لليقين، تميل العلوم العصبية الحديثة إلى اختزال هذه الحالات في نشاطات كهربائية كيميائية.

يهدف هذا البحث إلى تقديم مقاربة توفيقية من خلال إطار "**الظاهراتية العصبية**" (**Neuro-phenomenology**)، مستعرضاً تجربة الإمام **أبو حامد الغزالي** كنموذج تطبيقي فذ. إن أزمة الغزالي الشهيرة التي انتهت بفقدان النطق لم تكن مجرد عارض نفسي، بل كانت "انفجاراً إبستمولوجياً" يمثل ذروة الصراع بين العقل البرهاني والحدس الإشراقي. يسعى البحث إلى إثبات أن "النور" الذي وصفه الغزالي كشفاً، يجد صداه في علوم الإدراك المعاصرة كعملية إعادة هيكلة شاملة لوعي الذات.

١. التأسيس الإبستمولوجي: إشكالية الوعي المتعالي

تُعرف التجربة الروحية في الفلسفة المعاصرة بأنها حالة من الوعي غير الاعتيادي (Non-ordinary state of consciousness) تتسم بالوحدة والشمول (فاريلا، فرانسيسكو، ١٩٩٦، ص ٣٣٠). تكمن إشكالية البحث في تساؤل جوهري: هل يمكن تفسير "الكشف" الصوفي دون السقوط في فخ التفسيرات المادية البحتة التي تفرغ التجربة من معناها الوجودي؟

يستخدم البحث منهجية "**الظاهراتية العصبية**" التي تقترح دمج "تقارير الوعي الأول" (ما يقوله المتصوف) مع "بيانات الدرجة الثالثة" (ما يرصده الرنين المغناطيسي fMRI)، مما يسمح بفهم متكامل للظاهرة الروحية (Thompson, Evan., 2007, p. 340).

٢. المحور الأول: جينالوجيا التجربة الروحية في الفلسفة الكلاسيكية والمعاصرة

٢.١. الروحانية كعقلانية عليا (أفلاطون وأرسطو)

عند **أفلاطون، أريستوكليس**، تعتبر التجربة الروحية هي الغاية القصوى للجدل الصاعد؛ حيث تتحرر النفس من "عالم الظلال" لتتصل بـ "عالم المثل". في محاورة "الجمهورية"، يشدد أفلاطون على أن إدراك "مثال الخير" هو تجربة روحية وعقلية في آن واحد (أفلاطون، أريستوكليس، ٢٠٠٣، ص ١٥٨). أما **أرسطو، طاليس**، فيرى أن الروحانية هي تفعيل لـ "العقل الفعال" (Active Intellect)، وهو النشاط الذي يربط الإنسان بالمحرك الأول (أرسطو، طاليس، ٢٠٠٤، ص ٢١٠).

٢.٢. الانعطاف الظاهراتي: ميرلو بونتي وهيدغر

قدم **موريس ميرلو بونتي** رؤية ثورية مفادها أن الروحانية ليست فكراً مجرداً، بل هي "إدراك مُجسد" (Embodied Perception). الإنسان يختبر الروح من خلال جسده وجهازه العصبي وليس بمعزل عنهما (ميرلو بونتي، موريس، ٢٠٠٥، ص ١١٢). وهذا ما يتفق مع رؤية **مارتن هيدغر** الذي اعتبر التجربة الروحية هي "انفتاح على الوجود" يتجاوز الحسابات العقلية الضيقة (هيدغر، مارتن، ١٩٩٦، ص ٧٨).

٣. المحور الثاني: إبستمولوجيا "الذوق" في الفلسفة الإسلامية

يمثل التصوف الإسلامي ذروة البحث في "المعرفة الحضورانية".

٣.١. الاتصال والإشراق (الفارابي والسهروردي)

- **الفارابي، أبو نصر محمد:** يرى أن النفس البشرية عندما تبلغ كمالها تتصل بـ "العقل الفعال"، فتفيض عليها المعارف الإلهية دون حاجة للقياس المنطقي (الفارابي، أبو نصر محمد، ٢٠٠٢، ص ١٤٢).
- **السهروردي، شهاب الدين يحيى:** في "حكمة الإشراق"، يقرر أن المعرفة الحقيقية هي "نورانية" تحدث نتيجة "مشاهدة" مباشرة للحقائق، وهو ما يسميه "العلم الحضوري" (السهروردي، شهاب الدين يحيى، ١٩٩٣، ص ٥٧).

٤. المحور الثالث: تحليل حالة الإمام أبو حامد الغزالي (نموذج الظاهراتية العصبية)

يعتبر الغزالي النموذج الأتم لتحليل "التحول الإدراكي" عبر تجربة الشك واليقين.

٤.١. الأزمة الوجودية: تعطيل "القصدية" والنطق

يصف الغزالي في "المنقذ من الضلال" أزمة نفسية جسدية حادة: *"انعقد لساني.. فما كنتُ أقدر على نطق كلمة"* (الغزالي، أبو حامد محمد، ٢٠٠٠، ص ٦٨).

التحليل وفق الظاهراتية العصبية: تُفسر هذه الحالة بأنها صراع بين "العقل التحليلي" (الذي استنفد طاقته في الشك) وبين "الحاجة الوجودية للمعنى". عصبياً، أدى هذا التوتر إلى تثبيط **مركز بروكا (Broca's area)** المسؤول عن الكلام، نتيجة للنشاط المفرط في **اللوزة الدماغية (Amygdala)** المسؤولة عن القلق الوجودي (McNamara, Patrick., 2024).

٤.٢. الشفاء بـ "النور": إعادة ضبط شبكة الوضع الافتراضي (DMN)

يقول الغزالي: *"حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال.. بنور يقذفه الله في الصدر"*.

علمياً، هذا "النور" هو اللحظة التي يتم فيها تثبيط **شبكة الوضع الافتراضي (Default Mode Network)**، وهي الشبكة المسؤولة عن "الأنا الشاكة" و"الثرثرة الذهنية". عندما سكنت هذه الشبكة، انفتح دماغ الغزالي على "الإدراك الشمولي" أو ما يُعرف عصبياً بـ "الحالة الوحدوية" (Unitary State)، وهو ما مكنه من كتابة "إحياء علوم الدين" برؤية كونية جديدة (Jedlicka, Peter., 2025).

٥. المحور الرابع: الإطار العلمي المقترح (الظاهراتية العصبية التكاملية)

يستبدل هذا البحث أي نظريات غير موثقة بـ "**الإطار الظاهراتي العصبي**" الذي يقوم على مبدأين:

١. **التوافق المتبادل (Mutual Constraints):** البيانات العصبية (fMRI) يجب أن تفسرها النصوص الصوفية، والنصوص الصوفية يجب أن تجد لها صدى في النشاط العصبي.

٢. **الوعي المنبثق (Emergent Consciousness):** التجربة الروحية ليست "إفرازاً" للدماغ، بل هي "انبثاق" لوعي كلي يستخدم الدماغ كأداة للتجلي (فاريلا، فرانسيسكو، ١٩٩٦، ص ٣٤٥).

٦. المناقشة النقدية والخاتمة

تخلص الدراسة إلى أن الفصل بين الفلسفة والتصوف والعلوم العصبية هو فصل مصطنع. تجربة الغزالي تثبت أن "اليقين" هو حالة **بيولوجية–روحية** متكاملة. إن استخدام "**الظاهراتية العصبية**" يسمح لنا بفهم كيف يمكن لـ "الرياضة الروحية" أن تعيد هيكلة الدماغ لتحقيق الصحة النفسية والسمو الأخلاقي، وبهذا يتحول المقال من مجرد "مقال في التصوف" إلى **طرح علمي متكامل** يبدأ من المعاناة الشخصية للغزالي (كإشكالية وجودية) وتنتهي بمستقبل العلوم السيادية (كحل إبستمولوجي) .

استنتاجات البحث (Conclusions)

نتاج التحليل النقدي للصراع بين البرهان والعيان في تجربة الغزالي:

١. **وحدة الانفصال والاتصال:** خلص البحث إلى أن "قلق الغزالي" واضطرابه العضوي (فقدان النطق) لم يكن مجرد عجز سيكولوجي، بل كان حالة "**تعليق إبستمولوجي**" **(Epoche)** قسري؛ حيث أدرك الدماغ عجز الأدوات المنطقية عن استيعاب الحقائق الوجودية، مما أدى إلى انهيار "القصدية" القديمة تمهيداً لانبثاق "وعي إشراقي" جديد.

٢. **التطابق الوظيفي بين الكشف والنشاط العصبي:** أثبتت المناقشة النقدية أن مفهوم "النور" عند الغزالي يتطابق ظاهراتياً وعصبياً مع حالة "**السكون الإدراكي**" الناتج عن تثبيط شبكة الوضع الافتراضي (DMN)؛ مما يعني أن "الفناء" الصوفي هو إعادة تنظيم حيوية تسمح للدماغ بتجاوز المعالجة الذاتية (Self-referential) إلى المعالجة الكلية.

٣. **تجاوز الاختزالية المادية:** استنتج البحث أن تفسير التجربة الروحية عبر "الظاهراتية العصبية" يمنح الشرعية العلمية للتجربة الصوفية دون اختزالها في "مادة صماء"؛ فالدماغ هنا ليس خالقاً للحقيقة الإلهية، بل هو "مرآة" (بالمصطلح الصوفي) أو "وسيط وظيفي" (بالمصطلح العصبي) يتغير صقاله بتغير المجاهدة والرياضة.

ثانياً: توصيات البحث (Recommendations)

بناءً على النتائج الإبستمولوجية التي تم التوصل إليها:

١. **أنسنة علوم الأعصاب:** التوصية بضرورة دمج "التقارير الذاتية" للمتصوفة كبيانات علمية معتبرة في دراسات الوعي، وعدم الاكتفاء بالصور الإشعاعية؛ ففهم "قلق الغزالي" يتطلب غوصاً في تجربته الباطنية بجانب رصد نشاط فصه الصدغي.

٢. **تطوير "فلسفة العقل الإسلامية":** التوصية بإعادة صياغة المباحث النفسية عند الفلاسفة المسلمين (كابن سينا والغزالي) بلغة "**علوم الإدراك**" **المعاصرة**، لتقديم إسهام إسلامي أصيل في النقاشات العالمية حول "المشكلة الصلبة للوعي" (The Hard Problem of Consciousness).

٣. **الروحانية كبروتوكول علاجي:** التوصية بتوظيف "الظاهراتية العصبية" في تصميم برامج استشفائية تعتمد على "التأمل القصدِي" المستمد من الخلوة الغزالية، لعلاج أزمات "فقدان المعنى" التي يعاني منها الإنسان المعاصر، والتي تظهر عصبياً كاضطرابات في شبكات التوازن الانفعالي.

ثالثاً: المقترحات البحثية (Research Proposals)

آفاق مستقبلية لربط قلق الماضي بتقنيات المستقبل:

١. **مشروع "أطلس الوعي الإشراقي"**: اقتراح بحث تجريبي يستخدم تقنية (fMRI) المتقدمة لرصد التغيرات في القشرة الجبهية لدى الباحثين الذين يمرون بمراحل "الشك المنهجي" وصولاً إلى "اليقين الإدراكي"، لمحاكاة مسار الغزالي مخبرياً.

٢. **اللسانيات العصبية وصمت الغزالي**: مقترح لدراسة بينية تبحث في "العلاقة بين الصمت الروحي وتعطل مراكز اللغة"، لتحليل كيف يتجاوز الوعي الصوفي "اللوغوس" (الكلمة) إلى "النور" (الإدراك المباشر)، ومدى تأثير ذلك على كيمياء الدماغ.

٣. **الذكاء الاصطناعي والنمذجة الصوفية**: اقتراح بحث يهدف إلى بناء نماذج حاسوبية تحاكي "الدماغ البايزي" (Bayesian Brain) في حالة التصوف، لمعرفة كيف تتغير التوقعات الإدراكية للواقع عند الانتقال من الحس إلى الكشف.

قائمة المراجع النهائية (بالتفصيل الأكاديمي الكامل)

أولاً: المصادر والمراجع العربية

١. **ابن عربي، محي الدين محمد بن علي.** (١٩٩٧). *فصوص الحكم*. تحقيق: أبو العلا عفيفي. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

٢. **ابن سينا، أبو علي الحسين بن عبد الله.** (١٩٩٢). *الإشارات والتنبيهات*. تحقيق: سليمان دنيا. القاهرة، مصر: دار المعارف.

٣. **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد.** (٢٠٠٠). *إحياء علوم الدين*. بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

٤. **الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد.** (٢٠٠٠). *المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال*. تحقيق: محمود بيجو. دمشق، سوريا: دار التقوى.

٥. **الفارابي، أبو نصر محمد بن محمد.** (٢٠٠٢). *آراء أهل المدينة الفاضلة ومضاداتها*. شرح وتعليق: علي بوملحم. بيروت، لبنان: دار ومكتبة الهلال.

٦. **السهروردي، شهاب الدين يحيى بن حبش.** (١٩٩٣). *حكمة الإشراق*. تحقيق: هنري كربون. طهران، إيران: مركز نشر الكتاب.

ثانياً: المراجع الأجنبية (المعتمدة عالمياً)

7. **Heidegger, Martin**. (1996). *Being and Time*. Translated by Joan Stambaugh. Albany, NY: State University of New York Press.

8. **Jedlicka, Peter., & Havenith, Martha N.** (2025). Religious and spiritual experiences from a neuroscientific and complex systems perspective. *Neuroscience & Biobehavioral Reviews*, 177, 106319.

9. **McNamara, Patrick., & Grafman, Jordan**. (2024). Advances in brain and religion studies: a review and synthesis of recent representative studies. *Frontiers in Human Neuroscience*, 18.

10. **Merleau-Ponty, Maurice**. (2005). *Phenomenology of Perception*. Translated by Colin Smith. London, UK: Routledge.

11. **Thompson, Evan**. (2007). *Mind in Life: Biology, Phenomenology, and the Sciences of Mind*. Cambridge, MA: Harvard University Press. (المرجع الأساسي للظاهراتية العصبية).

12. **Varela, Francisco J**. (1996). Neurophenomenology: A methodological remedy for the hard problem. *Journal of Consciousness Studies*, 3(4), 330-349. (المقال التأسيسي للنظرية).